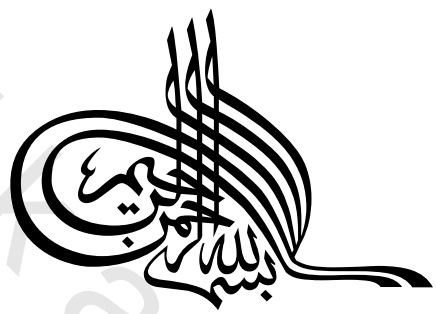

obeikandl.com

المقدمة

الحمد لله العلي الكبير، الذي خَلَقَ فَسَوَّى، والذي قَدَّرَ فَهَدَى، والصلاة والسلام على رسول الله ونبي الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ، وعلى آل رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه أجمعين.

وبعـــد:

فإذا كان تَدَبُّـرُ كلام الله تعالى أَنْبَـلَ الغايات فإنَّ الاعتناءَ باللغة العربية أشرفُ الوسائل إلى تلك الغاية، وقد ترك لنا الآباء والأجداد ثروة قيِّمة من المخطوطات، تمتلئ بها دور الكتب في العالم ؛ وهي جديرة بأنْ تُبْعَث من مرقدها، وهي خليقة بأن تُيَسَّر سُبُلُ الانتفاع بها ؛ وذلك بتحقيقها ونشرها، وإذاعتها في الناس ؛ لتكون مصدر نفع وإلهام للأجيال المتعاقبة.

وفي الوقت نفسه، سيأتي اليوم الذي يصبح فيه للغـة العربية ـ كغيرها من لغات العالم الراقية ـ معجمها الأدبي الذي يؤرخ للكلمات في نشأتها، وتطورها، من حيث: أصولها، وتعدد معانيها، واختلاف دلالاتها، وتنوّع أساليبها، وطرق استعمالها بين أبناء اللغة، من الكتاب النابهين، والشعراء الموهوبين.

وظهـور هذا المعجم رهين بإحياء التراث العربي: الأدبي والعلمي لهذه الأمّة العظيمة ، وكلُّ إسهام في هذه السبيل خطوة نحو تقريب ذلك اليوم، وقد صحَّ منِّي العزم على أنْ يكون لي نصيب في أداء قدر من هذا الواجب الذي يفرضه الإسلام على من يدينون به، والَّذي تنهض به لغة القرآن الكريم على لسان من يتحدّثون بها، والَّذي تقتضيه القوميّة على من تجمعهم أواصر العروبة؛ لذا آثرت تحقيق كتاب

"لذة السمع في صفة الدمع"، ودراسته دراسة موضوعية علمية، وهو من تأليف خليل بن أيبك الصفدي.

ويرجع اختياري هذا الكتاب للأسباب الآتية:

أولا: طرافة الموضوع: فالمؤلف يتتبّع مادتي "الدمع، والعين" في مجالات العلوم العقلية والنقلية، ويُتْبِعُها باختيارات من الشعر والنثر على امتداد فترة تاريخية تزيد عن تسعة قرون، وتغطّي ساحة الوطن العربي كله من المشرق إلى الأندلس.

ثانيا: يضمُّ الكتاب أحاديث، وقصصًا، ونصوصًا شعريّة لا يعرف لها مصدرٌ آخر غيره ؛ ولهذا كان للكتاب أهميّة كبيرة، في البيئتين: العلمية والأدبية، ونَقَلَ عنه كثير من المحدّثين، والمفسّرين، والأدباء.

ثالثا: في الكتاب نظرات كثيرة في: النقد، واللغة، والنحو، والتفسير، والقراءات أراها جديرة بالتأمُّل، والبحث، والدراسة.

رابعا: المؤلِّف واحد من أشهر كتّاب العصور الوسطى، وهو من أولئك العلماء الذين انتهت إليهم علوم الأوائل ؛ فتمثّلوها ، وحافظوا عليها، ولهذا جمعت كتبهم بين النقل والابتكار، وبين التقليد والتجديد، فهو لا يمثِّل عصره خير تمثيل، فحسب بل تتجلّى في كتاباته، وأبحاثه قمّة تطوُّر العلوم العربية، كما انتهت إليهم في العصور المتأخِّرة.

خامسا: المؤلف أمير من أمراء المماليك، إنَّهم هم الذين طهَّروا الأرض العربية من الصليبيين، وهم الذين هزموا المغول، ورَدُّوهم على أعقابهم خاسرين، وهم الذين جعلوا من مصر والشام قصبة التجارة العالمية، ومركز العلم والحضارة ، ومنارة الرقي والتقدُّم في العالم كلِّه، في العصر الوسيط ؛ ولهذه الأسباب شُحِنَتْ قلوب الشعوبيين، والأعداء حِقْدًا على المماليك، وجعلوا همَّهم الحط من شأنهم، وتهوين قَدْرِهم، وصرف الباحثين عن دراسة عصرهم مكتفين بحكم سريع ظالم عليه، ووصمه بالانحطاط والتخلُّف ؛ لذلك أحببت أنْ أقدِّم للباحثين شهادة صدق، تدفع التهمة عن هذا العصر، وتردُّ إليه ما هو له أهلٌ من الكرامة والعزّة.

وقد رأيت أنْ يكون الكتاب في قسمين: دراسة وتحقيق.

القسم الأوّل للدراسة، وفيه فصلان:

الفصل الأول: وفيه تعريف موجز بالمؤلف وعصره.

الفصل الآخر: أقدّم فيه دراسة وافية للكتاب: توثيق نسبته إلى مؤلفه، مخطوطاته، النسخ المعتمدة في التحقيق، منهجه، مَنْزلته، موضوعاته خصائصه الأسلوبية، والإملائية، وفصّلت خطّة التحقيق، والتي يمكن أنْ ألخصها في:

١ ـ صحَّحت عنوان الكتاب، من بين عناوين كثيرة تحملها مخطوطاته.

٢ ـ حرَّرت النص، وأكملت النَّقْص، وشرحت المفردات، وبيَّنت المصطلحات التي رأيت أنَّها تحتاج إلى تفسير، أو توضيح.

٣ ـ وثَّقت النصوص بالرجوع إلى مصادرها، وبيَّنت اختلاف رواياتها، أو اختلاف نسبتها، وصحَّحت تلك النسبة في حالة الخطأ البيِّن.

٤ ـ في آيات القرآن الكريم، أثبت السورة، ورقمها، ورقم الآية.

٥ ـ خرّجت الأحاديث الشريفة.

٦ ـ ترجمت الأعلام، وبيَّنت مواقع البلدان.

٧ ـ صنعت فهارس فنيّة شاملة، تيسِّر الانتفاع به.

وغير ذلك من الأسس العلمية لتحقيق المخطوطات، كما هو مفصّل في موضعه من الفصل الثاني.

والقسم الآخر: تحقيق نص الكتاب.

ولمّا كان الكتاب ذا طابع موسوعي ؛ فقد اقتضت الضرورة الرجوع إلى مصادر كثيرة، ومتعدّدة، من ذلك:

❁ كتب التفسير، وعلوم القرآن الكريم.

❁ كتب الحديث الشريف: الصحيح منه، والموضوع.

❁ مجاميع الشعر، ودواوين الشعراء.

❁ كتب الأدب، والتاريخ، والنقد.

❁ كتب اللغة، والنحو، والصرف.

❁ كتب الطب، والتشريح.

وإنَّني إذ أقدِّم للباحثين هذه الدراسة ؛ فإنَّني آمل أنْ ينال رضاهم الجهدُ الذي بذلته فيها سنين طويلة، وإنَّهم ليعلمون أنّ الصعوبات التي تعترض طريق الدارسين والمحققين لكتب التراث العربي كثيرة، يعرفها مَنْ مارس التحقيق، وخاض غمار البحث العلمي، منها:

❁ المئات من الأعلام الذين ذكر أسماءهم، أو ترجمهم، وكأنّما افترض الصفدي أنْ يكون لقارئ كتابه مثل ثقافته التاريخية الواسعة ؛ فترك عامدًا الكنى المشهورة، والألقاب المتداولة، ولم يستعمل منها إلاَّ المجهول، والمشترك ؛ مما زاد في العِبْء الملقى على عاتقي.

❁ طبيعة الكتاب الموسوعية اضطرتني إلى الرجوع إلى أعداد كبيرة من المصادر المتنوعة، في كل مجالات الفكر العربي.

❁ لعلّ أصعب الصعاب الحصول على المصادر ؛ فالكثير منها ما يزال مخطوطا وبخاصّة دواوين الشعراء في العصور المتأخّرة، وقد وضعت دور الكتب العربية في العالم الإسلامي قيودا غلاظًا؛ تجعل الاطلاع عليها، أو تصويرها أمْرًا بالغ التعقيد والصعوبة، ومخاطرة مكلِّفة في الجهد والوقت، والمال.

وبالرّغم من كل تلك الصعاب، فقد اكتملت هذه الدراسة على النحو الذي أرجو أنْ يكون محقِّقا للهدف منها.

بقيت لي كلمة، أرجو أنْ تكون بعيدة عن التجريح، أو الإساءة إلى من أساءوا إلى العلم، وإلى الكتاب، ففي سنة ١٩٨٤م التقيت الأستاذ الدكتور أنس داود ـ رحمه الله ـ في طرابلس، وكنت قد سجَّلت هذه الداسة لنيل درجة الماجستير في الأدب،

من كلية الآداب، جامعة عين شمس، ولَّما كنت مقيما في طرابلس الغرب في ذلك الوقت فقد رأيت أنْ أتقدّم بها إلى كلية اللغات، جامعة الفاتح، وطلب منِّي الدكتور أنس داود صورة من المخطوطة التي أعمـل في تحقيقها ـ ولم يكن بين يديَّ في ذلك الوقت من المخطوطات غيرها ـ وهي المخطوطة المحفوظـة في دار الكتب المصريـة تحت رقم ١٧٤٦/ أدب، وعنوانها "تشنيف السمع في انسكاب الدمع" رغبة منه في مساعدتي في تحقيقها، وقدّمت له صورتها، وشكرت له أريحيّته، ومروءته، وبعد قليل رجـع الدكتور أنس إلى مصر، وبلغني أنّه توفِّي فيها، ولم نلتق بعد ذلك اللقاء الأول الذي أعطيته فيه صورة المخطوطة.

علمت بعد ذلك أنَّ الأستاذ الدكتور محمد على داود ـ رحمه الله ـ حقق الكتاب، ونشره في الإسكندريّـة معتمـدا على خمـس نسخ مخطوطة، وقدَّم له الأستاذ الدكتور صابر عبد الدايم، ولا أعرف صلة القرابة بين المحقق وبين الدكتور أنس، ولعلَّ اللقب الذي يجمع بينهما مصادفة محضة، وأحببت أنْ أطّلع على المخطوطات الخمس التي اعتمدها المحقق لأقايس بينها وبين رسالتي هذه.

فوجئت بما لم يكن في الحسبان، وما ظننت أنْ يُقْدم عليه في يوم مِنَ الأيام مَنْ ينتسب إلى العلم، ويقدس الأمانة التي أُؤْتُمِن عليها الإنسان فلم أجد تعريفا بأيَّ مخطوطة منها ؛ وكنت في وقت لاحق قد حصلت على درجة الدكتوراه من كلية الآداب، جامعة عين شمس، وكان كتاب " الصفدي وآثاره في النقد والأدب " جزءا من رسالتي، واقتضت طبيعة الدراسة أنْ أقرأ أكثر ما كُتِبَ عنه، وأنْ أجمع ما أستطيع جمعـه من مخطوطات كتبه، وما علمت أنَّ من الكتاب نسخة في القدس ولم يشر أحد إليها[1]، والسيّد المحقق ـ رحمه الله ـ لم يذكر لنا شيئا عن تلك المخطوطات، ما أرقامها ؟ في أيَّ مكتبة توجد ؟ ما وصفها ؟ أين صورها ؟ ولم

(١) عرفت فيما بعد أنَّ المخطوطة في مكتبة البديري في القدس، وعنوانها "تشنيف السمع في انسكاب الدمع" منها مصوَّرة في الجامعة الأردنية تحت رقم ٧٠، وقد حقَّقها محمد عايش ونشرها بالاسم نفسه، وستجد وصفا لها فيما بعد.

أعرف كيف تحصَّل على نسخة من القدس ؟ وهل يكفي أنْ يذهب الإنسان إلى القدس، أو إلى تركيا ليجد المخطوطة أمامه ؟

وهل تقبل شهادة باحث بلا دليل ؟

قلت في نفسي: لا بأس، ولأنظر في التحقيق، فربما تدارك فيه ما فاته في المقدمة ؛ ولكن من المؤسف أنْ أجد صورة أخرى رديئة من صور الخلط، والتلفيق، والكذب، والتدليس...

وسأكتفي هنا بأمثلة قليلة، وسوف أشير إلى تلك الأخطاء ـ وهي كثيرة ـ في موضعها من الكتاب، من ذلك:

التدليس في الأعلام، فمثلا:

❁ في صفحة ٣٠، قال الصفدي: " رُوِيَ عن سالم ـ راوي عاصم المقرئ ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال.. ".

وفي الحاشية رقم (٢) عرَّف المحقق سالم هذا بأنَّه " سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ " وهو أحد فقهاء المدينة المنورة، وتعمَّد أنْ يخفي سنة وفاته ؛ لأنَّه توفي ـ رحمه الله ـ في سنة ١٠٦ هـ، وذَكَر وفاة عاصم بن أبى النَّجُود المتوفى في سنة ١٢٧هـ، فكيف يكون راويته قد توفي قبله بنحو ربع قرن ؟ وأراد الصفدي بسالم ـ هنا ـ ابن عيَّاش راوي عاصم، وتذكر كتب التراجم أنَّ سالما اسم له من بين أسمائه.

❁ في صفحة ٥٧، ترجم المحقق ابن المعلم، فيقول عنه: هو "عبد الرحمن بن محمد بن بدر..." ولم يذكر مصدرًا، ولا أدري من هو، والصحيح أنَّه محمد بن علي بن فارس الشاعر المشهور، وديوانه موجود.

التدليس في المصادر، فمثلا:

❁ في ترجمة عاصم المقرئ المذكور يحيل على الوافي بالوفيات ١ / ٢٤٣ وتاريخ ابن عساكر ٧ / ١١٩، والأعلام ٣ / ٢٤٨، والمصدران الأولان نقلهما خطأ عن الأعلام، فمعلوم أنَّ الوافي بالوفيات للصفدي يبدأ تراجمه بالمحمدين، وترجمة

عاصم فيه تأتى في الجزء السادس عشر في صفحة ٥٧٢، ولم يكن هذا الجزء من الوافي بالوفيات قد طبع في وقت ظهور الكتاب المحقق، وإنّما أراد الزركلي في الأعلام الحاشيـة (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان في طبعتـه الأولى، وأراد بتاريخ ابن عساكر مخطوطة دمشق، ولم تكن قد طبعت بعد، وترجمة عاصم في تهذيب تاريخ دمشق تأتي في الجزء السابع صفحة ١٢٢.

ومن المؤسف أنَّ أكثر مصادره ـ بل كلها ـ مدلّسة ؛ لأنّه ينقل المصادر من كتب مختلفة ـ كالأعلام، وغيره ـ دون أنْ يراها، والدليل على ذلك أنَّه لم يضع لها ثبتا في آخر الكتاب، يظهر زيفه، والتدليس في المصادر ظاهرة فاشية في كتب كثيرة، ينشرها كسالى المحققين، وأدعياء العلم، وما أكثرهم في هذه الأيام.

التعالم الجاهل: من ذلك:

أ ـ أنَّه يكثر من وضع الحواشي التي لا معنى لها، فمثلا:

❁ في صفحة ٧٦ وفي الحاشية (٥) يقول: " في صفحة ٨٦ وفي بقيةالنسخ".

ما هذا ؟ علما بأنْ رقم ٥ موضوع في المتن أمام عبارة "وقلت أيضا".

فهل تحتاج هذه العبارة إلى حاشية ؟.

❁ في صفحة ١٩ ذكر رقمين (٤، ٦) أمام اسمي شاعرين هما: عليم ابن أروح الكلبي، والحماسي، وفي الحاشية أعاد الرقمين والاسمين دون زيادة، فلماذا ؟ وكأنَّه كان يريد إضافة شيْء فلم يجد ما يضيفه.

ب ـ عدم معرفته بالأسس العلمية للتحقيق، فمثلا:

❁ في صفحة ٨١ وفي الحاشية (٢) يقول: م ٥٦ (داره) مكان الرقم " جهل العوازل ـ كذا ـ داره بجميعي "، والبيت لا يتزن.

ولم يسأل السيد المحقق نفسه: أليس عجيبا أنْ تتفق المخطوطات الخمس على إسقاط الكلمة من البيت ؟ وهل نصدقه نحن ؟

❁ المفروض في المتن أنْ يشير إلى صفحات المخطوطة الأم التي اتخذها أصلا، وفي الحواشي يشير إلى اختلاف المخطوطات في الرواية، وأنْ يوثِّق النص من مصادره، أمَّا ما فعله السيد المحقق فهو العجب العجاب ؛ إنَّه لا يجد توثيقا للنص إلاَّ ذكر صفحته في الأصل الذي يرمز له بالحرف "ص" وفي صفحاته في المخطوطات الأخرى المدلَّسة أصلا.

ـ فهل يكون قد وثَّق النص بهذه الطريقة العجيبة ؟

❁ في أكثر الأحيان أهمل ذكْر الاختلاف في الروايات، والاختلاف في نسبة الأبيات ؛ فبيتي قيس بن ذريح ـ مثلا ـ رُوِيَا في مصادرهما على أكثر من عشرة أوجه، وفي الوقت نفسه نسبا إلى أكثر من شاعر، ولم يشر المحقق إلى شيء من ذلك.

❁ لم يراع الدِّقة والشمول في المقارنة بين النسخ، ويكفي أنْ أقول: إنَّه في أول الكتاب ـ بعد البسملة ـ ذكر عبارة "عفوك اللهم" وقال في الحاشية الأولى:

" ليست في "د"، ومكانها (وبه ثقتي وعليه أتوكل)

ولم أجد عبارة "عفوك اللهم" في أيّ نسخة عندي، والعبارة كما في "د" جاءت في أكثر من مخطوطة، والعبارتان ساقطتان من نسخة الظاهرية، وساقطة أيضًا من الكتاب المطبوع.

❁ لم ينسب المحقق بيتا واحدًا مما ترك الصفدي نسبته.

❁ لم يعرِّف بالمغمورين من الأعلام والشعراء على كثرتهم، وهم الأحق والأولى بأنْ يعرَّف بهم، واكتفى بالتعريف بالأعلام المشهورين.

وكنت كلَّما نظرت في الكتاب تساءلت: ألم يقرأ السيد المحقق ما رواه الترمذي ﷺ من قول رسول الله ﷺ:

﴿ لاَ يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيقُ ﴾ ؟

وكان حَرِيًّا به أنْ يدع ما لا يحسن، وأنْ يجاوزه إلى ما يستطيع.

وأخيرا: فهذا إسهام متواضع في إثراء الفكـر، وإحياء التراث، وازدهار الثقافة العربية، بتزويد المكتبة العربية بهذا الكتاب الذي يبيّن بعض جهود الصفدي في الأدب، والنقد، فإنْ كنت قد وُفِّقت ؛ فذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء، وإنْ كانت الأخرى فأرجو المعذرة عن قصوري، لا تقصيري، وحسبي أنّني أخلصت النيَّة، واجتهدت بقدر استطاعتي، وما أبرِّئ نفسي.

وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكّلت، وإليه أنيب.

محمد لاشين

obeikandl.com